على الكتاب

قصة جديدة بقلم مهدي عيسى الصقر

بعد ان جلس على احد الكراسي المريحة ، اخذ يتفحص الرواد . كان ثلاثة من البحارة الاجانب يشغلون احدى الموائد على يمينه ، وعلى مائدة اخرى جلس احد (الشيوخ) بعقاله الضخم ، وكان يشرب كأسه بنهم ثم يمسح فمه بيده، وكانت احدى راقصات الملهى تحوم حوله ، وتبتسم له كلما رفع عينيه اليهـا ؛ غير ان جسدها الهزيل ، وانفها البارز ، وعينيها الكئيبتين الغائرتين لم تغر الشيخ ، فتجاهل وجودهـا . والى يسار الرجل كان يجلس اثنان تكدست على مائدتهما زجاجات (البيرة) وصحون (المزة) ، وعلى بعد منها جلست راقصتان وقد تسمرت عيونها في الكرسي الذي ظل فارغاً بجانب الرجلين. وتحت احدى الاشجار كان احدهم يحاول تقبيل راقصة تجلس بجواره وهي تتمنع .

ونظر الرجل الى المسرح فوجد جماعة كبيرة من السوقة والعمال يشغلون الصفوف الامامية، وكان بعضهم يمزح مع افراد التخت، وكان عازف الكمان يقلد على كمانه – تقليداً رديئاً – اصوات بعض الحيوانات فيضحك هؤلاء . ثم راجت عيون الرجل تستعرض الجالسين في الجانب الآخر من الملهى : رجل وراقصة ، مائدة فارغة ، ثلاثة رجال، مائدتان فارغتان ، رجل يشرب وحده وراقصة تحوم حوله كالكلب الجائع . موائد فارغة ، وراقصة تجلس وحدها ! وعندها وقفت عيناه . كانت جميلة : وجه ممتلىء مستدير ، وعينان كانتا – رغم المسافة والاضواء الباهتة – تتألقان كنجمتين،وتشعان كقطعتين من الماس..

لا .. ليست هذه كالأخريات ، انها من تلك الوجوه التي لا تظهر في الملاهي إلا نادراً ، ثم لا تلبث ان تختفي في مخدع احدهم لبضعة شهور او لبضع سنين لتعود حطام امرأة .

– الويسكي عمي .

– قاسم .. من هي !؟

ونظر الخادم حيث اشار الرجل .

– ساجدة !

– اتشتغل هنا ؟

– نعم عمي .

– ترقص ام تغني ؟

– ترقص وتغني !

– لطيف .. ادعها الى مائدتي .

فسكت الخادم .

– اسرع .

– لكنها لا تجلس مع الرواد .

– لا تجلس !! اسمع .. هذه اسطوانة قديمة.. قل لها اني لست كالآخرين.

وذهب الخادم ، وتبعه الرجل ببصره ، ورآه ينحني على الغانية ويهمس شيئاً في اذنها ، ورآها تحرك رأسها رافضة . ولم ينثن قاسم وكان يجاهد ليغريها على القبول ، وكانت ترفض بعناد ، وكانت عيون الرجل – طيله الوقت – معلقة فيهما ، تترجم حركة رأسيهما وقد نفد صبره . وضاقت به الدنيا عندما رآها تزجر الخادم ، وأحس كأن يدها تهوي على وجهه . لم يسبق ان فكرت غانية في رفض دعوته . وعاد الخادم خائباً .

– لا بأس .. لا بأس .

وحاول الخادم ان يقول شيئاً، فأشار له ان ينصرف . الحديث عن الهزيمة شيء لا يسر ، لقد رفضت . لا بأس .

– ويسكي

ونظر حوله فوجد الشيخ قد اجلس الراقصة التي كانت قبل برهـة تحوم حوله ، وطوقها بذراعه ، بعـد ان لطفت الخمرة – في نظره – تقاطيع وجهها المتنافرة ، وشاهد راقصتين تجلسان مع البحارة الاجـانب ، ووجد الكرسي الذي كان فارغاً بجانب الرجلين، على يساره ، تشغله احدى الغانيات وقد انكب عليها كلاهما ، كل يحاول ان يستميلها اليه ، وهي توزع ابتساماتها عليهما في براعة عجيبة . وابصر برواد جدد يشغلون بعض الموائد الفارغة في الجهة الاخرى ، وكانت الصفوف القريبـة من المسرح قد اخذت تزدحم بالرعـاع ، وقد اخذتهم الحماسة يصفقون لواحدة كانت تغني بصوت مبحوح « شاريك انا شاريك » .

– الويسكي عمي .

– قاسم.. متى يأتي دور ساجده ؟

واشار الخادم الى المغنية فوق المسرح

– بعد جوهرة عمي .

وتردد قاسم قليلاً قبل ان يقول :

– ساهرة هنا .. هل أدعوها ؟

– لا لا .. اسمع .. احمل الويسكي هناك .

واشار الى الصفوف الامامية . واستغرب الخادم ذلك الطلب . وقـام الرجل بجسده المترهل ، وشق له طريقاً بين الجالسين حتى وجد كرسياً في الصف الامامي . والتفت يحيي الرواد من حوله ، وعلى شفتيه ترتسم ابتسامة عريضة تنم عـن منتهى البساطة وطيبة القلب . وتبادل معهم كلمات رقيقة وصافح بعضهم ؛ فتملكهم شعور غريب ، وأحسوا بفرح عظيم يغمرهم ، وبانهـم اسمى مما كانوا يظنون ؛ ومع ذلك أحسوا بشيء من الحرج وكفوا عن التصفيق. واستغربت المغنية وجوده بينهـم ، وبان ذلك في صوتها . والتفت هو اليهم :

– لماذا سكتم !؟ صفقوا .. لا داعي للخجل .. نحن اخوان !

وبعثت الكلمة الاخيرة السرور الى قلوبهم ، فلاحت الابتسامات عـلى وجوههم ، وضحكوا فرحـاً : ضحكوا من القلب . كم هي جميلة كلمة « اخوان ! » وراح بعضهم يردد مع المغنيـة « الهوت اطيعك يا ولد الهوت اطيعك» وعادوا يصفقون كما كانوا والرجل يصفق معهم.وجاء قاسم بالويسكي فتراحت الايدي عن التصفيق : لقد افسد السائل الثمين ذلك الفرح الذي كان يغمرهم قبل برهة.ويسكي ! شيء عريب لا مكان له في الصفوف الامامية، ولاحظ الرجل صمتهم .

قاسم .. ويسكي للجماعة .. ويسكي لهم كلهم .

– ويسكي !! – لكن !! لا متشكرين !!

وبانت الدهشة واللهفة على وجوههم في آن واحـد ، وقال الرجل وهو يضاحكهم .

– نحن اخوان .. لا داعي للخجل .

وعاد اليهم مرحهم ، وصاح واحد منهم :

- انا اريد أبيض .. ابو سطعش .

- اشرب ويسكي .

- انا اريد ابيض .. اريد اسكر بسرعة .

- اشرب ويسكي الى ان تسكر .. اشربوا الى ان تسكروا .. قاسم

ويسكي للجماعة كلهم .

وانهت المغنية اغنيتهـــا فغادرت المسرح ، والتفت الرجل الى القريبين منه يسألهم عن اعمالهم وعن حياتهم كيف تسير ؛ وبان الحزن على وجهه المنتفخ وهو يصغي اليهم يروون قصص حياتهم البائسة . وكان الجالسون بعيداً يروون في ما بينهم ما يعرفونه عن الرجل .

رجاء قاسم واثنان من الخدم بالويسكي ، فتألقت العيون ، وانتبه الرجل الى افراد التخت وهم يعزفون مقدمة احدى الاغاني ، ثم ظهرت ساجدة ، ترتدي فستاناً اخضر طويل الاكمام ، وتمسك بيدها منديلاً ابيض ، وبدأت تغني « فرحانة فرحانة » فاطلق الرجل ضحكة صاخبة :

– انت فرحانة !؟ انت وجهك مأتم .

وضحكوا كلهم ، وكانت كؤوس الويسكي ما تزال بين ايديهـــم ، فقال آخر :

– وجهها أتعس من حظي .

فهتف ثالث :

– وجسمها ؟

فأجاب واحد من الخلف :

– خراب مثل دار العجزة .

وكان الرجل غارقاً في الضحك بعد ان اشعل الشرارة الاولى . وضاع صوتها ، ولمحته يجلس بينهم ، فعرفت قصده ، انها معركة سلاحه فيهـــا هؤلاء الرعاع . وجاهدت لتنتصر ، وأخذت ترفع صوتها «والدنيا معايا ..» ولكن النكات اللاذعة كانت تهوي على رأسها من كل جانب ، فكفت عن الغنـــاء وحاولت ان تجرب سلاحـــاً آخر ، فأخذت ترقص ، ولم تكن ماهرة ، فبدأت تحرك يديها حركات رتيبة ، فصاح الرجل كما يصيح مدرسو الرياضة للطلاب الصغار :

– ثني . أعلى . مد . ثني . أعلى .

وردد معه الآخرون في صوت واحد «ثني . اعلى . مد» ولم تستطع ان تصمد ، وارتبك افراد التخت ، فانسحبت من المسرح ذليلة ، تخفف دموعاً انهمرت من عينيها . وقام الرجل وهو يشعر بلذة الانتصار ، وشق طريقه عائداً الى حيث كان يجلس . وكان ميخا ، صاحب الملهى ، قد شاهد كل شيء ، وفدر ربحه من اقداح الويسكي التي حملها قاسم والخدم الى الصفوف الامامية ؛ فذهب الى الغانيـــة التي كانت ما تزال تبكي في غرفة الملابس ، وافهمها انها كانت مخطئة في رفضها دعوة رجل من اشراف البلد، وجاء بها ميخا:

– ساجدة متأسف ، ما كان فصده شيئاً ، هو كان مريضاً فقط .

وقام الرجل وأجلسها بجانبه وهو يضحك .

– انا آسف ايضاً .. لكنها هي التي ارغمتني .

ثم التفت اليها .

– ويسكي ؟ جن ؟

– أي شيء ؟

– ويسكي من فضلك .

وهرع ميخا يلبي الطلب، وكانت هي ما تزال تحس برغبة في البكاء ، وكانت مرغمة على كبت تلك الرغبة ، فشعرت كأن شيئاً ينحشر في حنجرتهـــا ، وازداد وجهها احمراراً ، وكانت الدموع قد بلت اهدابها ، فبدت عيناها في اطار جديد ، وود الرجل لو خلا بها في مكان آخر .

– انت اسمك جميل ووجهك جميل ، فلا بد ان يكون جسدك جميلاً ايضاً، لم لا ترقصين عارية كالاخريات !؟

– اعطي سيجارة .

– لم لا ترقصين عارية ؟ ؟

– سيجارة من فضلك .

فتناولتها من يده وارادت ان تشعلها .

– لا . لا ، مثلك لا تشعل سيجارتها بعود ثقاب .. اسمحي لي لحظة .

وأخرج حافظة نقوده ، وتناول ورقة من فئة العشرة الدنانير ، وأشعل في طرفها النار ثم ادناها من سيجارة الغانية ، فأحست بشبه انتصار ، وزال ذلك الشيء الذي كان ينحشر في حنجرتها قبل لحظة ، وودت لو حرق كل ما معه من نقود .

– أتسهرين معي الليلة ؟

– لأ .

– عندك عشيق ؟

– لأ .

– إذن لمَ ! ؟

ولم تجب ، وتجرع كأسه ، ثم ضحك .

– أوه .. العفو .. نسيت انك راقصة فاضلـــة .. شيء لطيف .. راقصة وفاضلة .

وراح يضحك حتى دمعت عيناه ، ثم صمت فجأة ، وكانت هي تشرب صامتة.

– لم انت حزينة ! ؟

– لست حزينة .

– لم لا تضحين إذن ! ؟

– بلا سبب ! !

– شارب الخمر يضحك بلا سبب .

– لا بد من نكتة .

– نكتة !؟ ان كل شيء في الملهى هو نكتة .. انظري .. الى المسرح..

الى زميلتك .. جسدها الهزيل .. انفها البارز .. وعينيها الغائرتين .. وذلك الكهل النمل الذي يرقص حولها .. انها نكتة .. اضحكي فقط .. لأرى اسنانك الصغيرة البيضاء .

ونظرت الى المسرح ، وأحست كأن الرواد ما زالوا يهتفون ساخرين منها ، « وجهك مأتم .. اتعس من حظي .. خراب مثل .. ثني . أعلى . » وتضخم الصوت، واختلطت كل تلك النكات اللاذعة التي قذفوها بها ، ونظرت الى الرجل في حقد ، وضحكت بعصبية ، وألقت سيجارتها وعاودهـــا ذلك الاحساس بالاختناق .

– سيجارة من فضلك .

وامسكت السيجارة ، واخذت تنظر اليه،تنتظر ان يخرج حافظة نقوده.

– ألا تشعل لي ؟ ؟

– أوه طبعاً ، طبعاً .

واسرع يخرج حافظة النقود، وتناول ورقة .

– عود واحد فقط ؟

– واحد ! ؟ سأشعل لك علبة الثقـــاب باكملها .. اذا شئت ..اضحكي فقط .. لأرى اسنانك الصغيرة البيضاء .

وابتسمت تشجعه :

– ولكن .. الحساب ! ؟

– الحساب ! هه .. انت جديدة .. انت لا تعرفيني بعد .. انا استطيع ان اشتري الملهى .. وميخا صاحب الملهى .. وقاسم .. تعال قاسم .. ايعجبك قاسم ! ؟ وتلك المخلوقات .. تلك الحفنة من المخلوقـــات .. في الصفوف الامامية .. اشتريهم كلهم .. الأوغاد كانوا يضحكون منك ! ؟ لا بأس .. بشرفي .. انا عندما احلف بشرفي .. سأجعلهم غداً .. يصفقون اعجابا .. فقط .. فقط قولي .. أتسهرين معي الليلة ؟؟

فلم تجب ، وادنت سيجارتها :

– ألا تولع لي ؟

– قولي .. اتسهرين معي ؟ ؟

– ولع لي .

وتناول رزمة كبيرة ، واشعل في طرفها النار ، فأسرعت هي واشعلت سيجارتها ، واندلع اللهب ، وسرى في الرزمة ، وقبل ان تحترق اصابعه القى بهـــا الى الارض ، وسحق النقود بقدمه وهو يضحك ، وضحكت هي . وكانت تحس في اعماقها براحة نفسية، وشعرت كأنها ثأرت لنفسها ، فضحكت عالياً ، ضحكت من القلب هذه المرة . وكان الجالسون قد شاهدوا الرزمة تلتهمها النار ، فأخذوا ينظرون صوبها مستغربين ، وذهل البحارة الاجانب، أمـــا رواد الصفوف الامامية ، تلك الحفنة من المخلوقات ، فقد تلاشى من رؤوسهم أثر كل ما سقـــاهم الرجل من ويسكي ، وتسمرت عيونهـــم في رماد النقود ، يخيم فوقهم صمت ابله كئيب ، وفجأة صاح واحد منهم ، وكان يبدو ثملاً جداً :

– لماذا سكتم .. صفقوا .. نحن اخوان !

ثم اطلق ضحكة كالعويل لم يشاركه فيها احد .

مهـدي عيسى الصقر

البصرة

يصدر قريباً عن دار بيروت – للطباعة والنشر

١ – الوجودية فلسفة انسانية

تأليف : جان بول سارتر ترجمة : مروان الجابري

٢ – الوجودية ليست فلسفة انسانية

تأليف : الاستاذ كاتابا ترجمة : مروان الجابري

صدر حديثاً

الخليفة الزاهد

عمر بن عبد العزيز

اوسع دراسة وأدقها عن هذا الخليفة العظيم الذي عمل لخلق مجتمع مثالي تحققت فيه العدالة الاجتماعيـــة فشملت افراد الناس جميعاً

الاستاذ عبد العزيز سيد الاهل

الطبعة محدودة دار العلم للملايين

صدر حديثاً عن:

دار العلم للملايين

بيروت

		ل . ل
ولادة استقلال	للاستاذ منير تقي الدين	٤٠٠
هذا العالم العربي	للاستاذين نبيه فارس و محمد توفيق	٣٠٠
غزل النساء	للاستاذ عيسى سابا	١٠٠
لاجئـــة	للدكتور جورج حنا	٢٠٠
عشتروت وادونيس	للدكتور حبيب ثابت	٤٠٠
مدينة التماثيل	للاستاذ محمد المجذوب	٦٠
قاهر الصحراء	« « «	٥٠